الإنسان والخوف ...

بقلم عبد الله يونس

زمن طويل مضى ، منذ ان كان الانسان يقبع بانكماش في زاوية ما ، ويحدق برهبة في الظلمة المرعبة التي تغلفه من كل جانب ، حتى ليكاد يتحول في لحظة من لحظات الانكماش والتحديق ، الى مجرد عينين جاحظتين تتسعان باستمرار ، وفي هلع ، وتقذفان في العتمة بأخيلة غريبة تظل تتضخم وتنمو وتمتص من عروقه النافرة ، ويظل هو ينكمش ويرتجف ، الى ان يذوب فيه كل معنى غير ذلك الارتجاف الهالع الذي يتوسل بصمت ذليل ، كي تتركه يقبع بسكون ، تلك الاخيلة السوداء التي لاتقهر ، والتي يخلقها دون توقف !

والسؤال الجدير بالاثارة هو : هل فتح الانسان عينيه فجأة ليجد نفسه ملقى على هذه الكرة والخوف يملأ أوصاله ؟

ان الخوف ـ كحالة تسيطر على الكائن ـ عبارة عن قلق مكثف بحدة نتيجة احساس يعتري هذا الكائن بأن ثمة خطرا يتهدد وجوده ، وعلى هذا الاساس السابق ، فتحقق تلك الحالة يحتاج الى قدرة على الاحساس بذلك الخطر المهدد ، والى قدرة اخرى على الاستجابة لاثر هذا الخطر ، وبالتالي الانفعال به ، وتبعا لذلك فهو يستوجب :

١ ـ وعيا حسيا للمجال الخارجي ، أي تحقق طاقة حسية للكائن ، يستطيع ان يستوعب بها ـ حسيا ـ مختلف عناصر البيئة المحيطة به ، وتستطيع بالتالي ان تقف كعنصر التقاط .

٢ ـ وعيا ذهنيا اوليا ، وعلى درجة من البساطة ، بحيث يستطيع ان يحقق لذلك الالتقاط الخارجي وسطا يؤثر فيه ، ومجالا داخليا يستوعبه ليتأثر به ، وليعمل على اعادة ذلك التأثر بشكل يؤدي الى بروز حالة الخوف وتجليها كحس انفعالي يسيطر على لحظة الكائن الحاضرة .

ولكن ، اذا كان توفر العنصرين السابقين شرطا ضروريا للاحساس بالخوف بشكل اولي ، فالى اي مدى يستطيع نمو هذين العنصرين وتكاملهما ان يؤثر في توتر انفعالية ذلك الاحساس او نقصانه ؟ لقد ناضل الانسان بعنف طيلة ملايين من السنين ، للانبثاق كطاقة حية من خلال عناصر الكون المختلفة ، كما خاض صراعا قويا لتركيز هذه الطاقة والمحافظة عليها وتنميتها باستمرار ، وكل ذلك كان يتم من خلال وعي بروتوبلاسمي للعالم ، تحدده طبيعة الصفة الوحيدة التي كانت تلخص وجود الانسان ، وهي الصراع من اجل الحياة .

وطيلة تلك الفترة التي كانت فيها تلك الطاقة غير الواعية تجاهد لالقاء جذورها في تربة هذا العالم ، لم يكن باستطاعة الانسان ان يشعر بالخوف ، لانه لم يكن باستطاعته ان يتلمس ماحوله ، ولا ان يفهم مايمكن ان يعنيه .

ثم تلا ذلك ان تركز الانسان على هذه الارض « كحياة » وبدأ يستهدف ـ وجوديا ـ زيادة مجالاته ، وهكذا بعد ان كان كل عمله يقتصر على الصراع من اجل الحصول على الحياة ، اصبح مايسعى اليه يتضمن الى جانب ذلك :

١ ـ المحافظة على هذه الحياة وتنميتها باستمرار .

تحسس هذا العالم الذي يحيط به والتعرف عليه .

وشيئا فشيئا اصبحت تلك المحافظة على الحياة ومحاولة تنميتها تتم من خلال عملية تعرف الانسان على العالم ، وبحيث تستهدف باستمرار زيادة امكانياته التي يستطيع بواسطتها تحقيق هذه الغاية . وتبعا لهذا كانت تتولد وتنمو لدى الانسان مجالات حسية جديدة ، تمكنه في كل مرة من تلمس شيء جديد اخر من تلك الاشياء الكثيرة والمعقدة التي تحيط به .

وخلال عملية التعرف الطويلة تلك ، كان الانسان يتعرض لالوان من المخاطر الناتجة عن اصطدامه ببيئته الخارجية ، بكل مافيها من جبال شاهقة ووديان سحيقة وانهار جارفة ، وتعرض الانسان لهذه المخاطر بأنواعها المختلفة ، كان يقذفه في كثير من الاحيان الى الوراء ـ ليحطمه ، ويخمد فيه تلك الطاقة التي صارعت بعنف للانبثاق ـ أي ان الانسان كان يلتفت باستمرار ، ليجد نفسه من جديد امام تجربة اخرى تهدد وجوده . وكان عليه ان يصارع في كل مرة !

ومن خلال هذا الصراع الدائم والمتجدد ، بدأ يتكون لدى الانسان نوع اخر من الوعي لتلك الاشياء التي تحيط به . فمثلا ، لم يعد ينظر الى الجبل كشيء شاهق عجيب تنفغر له شفتاه ، بل اصبح يعني الى جانب ذلك امكانية التساقط والانقضاض في اية لحظة ، مهددا بذلك وجوده بعنف . ولهذا اصبحت مجرد رؤيته للجبل ، من الممكن ان تثير فيه هذا القلق الغامض على كيانه .

ومع التجارب المتزايدة والمتعمقة أبدا ، كان ذلك الوعي يزداد نموا ، فيزداد تبعا له ذلك القلق الغامض كثافة وحدة ولقد ظل ارتفاع خط الوعي لدى الانسان ، يعني ارتفاعا

متساويا في ذلك الخط الذي يمثل تفاقم الخوف وانفعاليته والذي ينغرس ابدا في قلب الانسان واعصابه .

ولكن ، هل ظل هذان الخطان يتواكبان في صعودهما ، ام ان هذا الصعود المتساير كان يؤدي الى نقاط معينة من الممكن ان ينعكس فيها هذا التساير ؟

الحقيقة ان تطور هذا الوعي بنوعيه الحسي والذهني لم يكن يتم من خلال بنية بيولوجية واحدة تستوعب تلك الطاقة الحية ، ولكنه كان يسير جنبا الى جنب مع تطور بيولوجي اخر كان يتناول الانسان كبناء Structure وكل مرحلة من المراحل التي مر بها الانسان ، قبل ان يأخذ شكله وبنيته الحاليين ، كانت تتميز بمستوى معين من الوعي الممتد على مجالين ، وبالتالي بمستوى معين من الاحساس بالخوف .

فمن الانسان ـ البروتوبلازم عديم الاحساس بالخوف ، والذي يمكن اعتباره كمرحلة اولى ، الى مرحلة تالية كان الانسان يتمتع فيها بمستوى معين من الوعي ، كاف لجعله يرتجف فرقا لمجرد سقوط ثمرة جوز عليه ، وتعليله ذلك بان كل تلك الاشياء المجهولة التي تظلله سوف تنهار عليه .. ! الى مرحلة ثالثة استطاع انسانها ان يدرك ان ارتفاع مياه النهر يحمل تهديدا له ، يجعله يهرع بسرعة الى اعالي الشجر .. الخ ..! واخيرا الى الانسان العادي الذي لم تعد حدود تفكيره تنتهي عند ثمرة الجوز التي تسقط ، او مياه النهر التي ترتفع ، بل اصبح بامكانه الى جانب ذلك ان يتعمق اكثر فأكثر في تحليله لمثل هذه المظاهر ، وان يختلق اشياء كثيرة من العدم ، كتلك الاشباح والاخيلة التي كان يطلقها في الظلمة دون هوادة ، والتي كانت تزيد في اخافته وارعابه !

وعلى هذا الاساس نستطيع الاجابة على السؤال الاول : « هل فتح الانسان عينيه فجأة ليجد نفسه ملقى على هذه الكرة والخوف يملأ اوصاله ؟ »

الحقيقة هي ان هذا الانسان العادي ، عندما فتح عينيه على كيانه الجديد ، كان يشعر بالخوف ، ولكن هذا الخوف لم يهبط عليه فجأة ، وانما جاءه نتيجة لارث قديم ظل يحمله في عروقه ويطوره باستمرار مع تطوره الدائم ، حتى بلغ تلك النقطة التي كان يقف فيها كأنسان عادي ، ولكنه يحمل في جذوره كل انسانات المراحل السابقة ـ الذي لايخشى شيئا ـ والذي يرعبه سقوط الجوز ـ والذي يخيفه ارتفاع مياه النهر ـ الخ ..!

وتبعا لذلك ، كان من الطبيعي ان يكون مستوى الوعي ـ الحسي والذهني ـ لدى الانسان في هذه المرحلة ، اكثر ارتفاعا منه في سائر المراحل السابقة ، ولكنه كان عليه ان يدفع مقابل ذلك ، مزيدا من الاحساس بالخوف ، وذلك :

١ ـ لاختلاف نسبة النمو بين الوعي الحسي للانسان والوعي الذهني له .

٢ ـ بسبب المستوى الذي بلغه الوعي الذهني بصورة خاصة .

فنظرا لان وعي الانسان الحسي قد نشأ لديه قبل الوعي الذهني بفترة طويلة ، فمن الطبيعي ان يكون هذا الوعي قد بلغ حظا وافرا من النمو في هذه المرحلة ، وهذا يعني اتساع ودقة المجالات التي يستوعب ويتحسس من خلالها ، انسان هذه المرحلة ، بيئته .

اما بالنسبة للوعي الذهني ، فكان قد نما نوعا ما ، ولكنه لم يكن قد وصل في نموه الى ذلك المستوى المتكامل الذي يستطيع ان يؤدي الى الفهم الصحيح ، وذلك لقلة وضعف مجموعة التجارب التي كان قد تمرس بها هذا الوعي حتى تلك الفترة المعينة .

ولهذا كله ، فذلك النمو في الوعي الذهني الذي حققه الانسان في بداية هذه المرحلة ، وان كان يعتبر خطوة نحو مستوى الفهم المتكامل الا ان كل ماكان يعنيه ـ عمليا ـ هو زيادة نمو الطاقة التخيلية لدى الانسان ، دون ان يتحقق لها الضابط اللازم من الفهم الصحيح . ولهذا فارتفاع مستوى الوعي عند انسان هذه المرحلة ، انما كان يعني مزيدا من الاحساس بالخوف لهذا الانسان ـ كما أشرنا سابقا ـ وهنا نستطيع ان نطرح كلا السؤالين الثاني والثالث لنجيب عليهما :

« الى اي مدى يستطيع نمو الوعي بنوعيه ان يؤثر في زيادة توتر انفعالية الاحساس بالخوف او نقصانه ؟ »

« هل يمكن ان يظل كل من الخوف والوعي الذهني متواكبين في نموهما ، ام ان هذا النمو المتساير قد يؤدي الى نقطة معينة من الممكن ان ينعكس فيها هذا التساير ؟ »

ابتداء من مرحلة الانسان العادي ، ظل نمو الوعي بنوعيه مدعاة لنمو احساس الانسان بالخوف ، للاسباب التي أبديناها منذ لحظة . ولكن خلال تلك المرحلة ، كانت تجارب الانسان آخذة بالازدياد والعمق والتمرس بكل نواحي بيئته وأبعادها ، وكان هذا التمرس يلقي في طريق الانسان باستمرار ، كثيرا من الاشياء التي كان بمقدورها ان تبرز له مظاهر بيئته وطبيعتها على حقيقتها .

فنمذ ان اكتشف الانسان النار مثلا ، استطاع ان يزيل ـ نوعا ما ـ ذلك الفهم المتضخم لحقيقة الظلام ، بعد ان اصبح بامكانه ان يهزم بناره المتوهجة ، تلك الاشباح التي كانت تنبع من الظلام ، والتي كان يظن بانها لايمكن ان تقهر !

وشيئا فشيئا ، بدأ الانسان يسير نحو مرحلة حاسمة من تاريخه ، وهي التي يمكن ان ندعوها بمرحلة : **الفهم الصحيح** . وهذا الفهم الصحيح لانعني به الفهم المتكامل التام الوعي ، ولكن الفهم القادر على التعرف على مظاهر بيئته بصورها الحقيقية ، والقادر على التخلص من الخرافات وشطط التخيلات الماضية الشاذة .

ولنلاحظ ان تلك الفترة التي تمتد بين مرحلة الانسان العادي ، وبين مرحلة انسان الفهم الصحيح ، هي الفترة التي قاسى فيها الانسان اشد انواع الخوف ، والتي برز

فيها الخوف كأحساس غامر ، ومسيطر على الانسان ، والتي تستحق لذلك ان تدعى بفترة : **الخوف الاعظم** !

ومنذ المرحلة التي تلت « الانسان ـ البروتوبلازم » وما بعدها ، بدأ خط الخوف بالارتفاع والصعود ، جنبا الى جنب مع خط الوعي ، واستمرا في ذلك ، الى ان قفزا بقوة خلال فترة الخوف الاعظم . ولكن منذ نهاية هذه الفترة وبداية مرحلة الفهم الصحيح ، بدأ الخطان بالانفصال ، فاستمر خط الوعي بالارتفاع والنمو ، بينما انتكس خط الخوف وبدأ بالانخفاض ! ولكنه لم يكن ينخفض ليضمحل تماما ، ولكن ليستقر ضمن مستوى طبيعي يصبح فيه مجرد شعور غريزي كامن وقابل للاثارة في كل لحظة ، بعد ان كان ـ في الفترة السابقة على الاخص ـ شعورا عاما طاغيا يغلف وجود الانسان بأكمله !

وفي الحقيقة ، ان احساس الانسان بالخوف ، لم ينته تماما الى ان يصير مجرد شعور غريزي كامن ، بل كان يتعرض في كثير من الاحيان الى بعض الظروف التي كانت تعمد الى تضخيمه من جديد ، واعادته كشعور طاغ مسيطر على الانسان .

وهذه الظروف تتمثل ابلغ تمثيل في نشأة الديانات الوثنية القديمة وتطورها . فتلك الديانات ـ على اختلاف العوامل التي ادت الى نشأتها ـ كانت تلتقي جميعها عند نقطة هامة ، وهي ان هدفها الاول الذي تعمل لارسائه كأساس ثابت لكل غاياتها ، هو خضوع الانسان التام !

وفي سبيل الحصول على هذا الخضوع ، كان على اصحاب تلك الديانات ان يمارسوا مختلف الوسائل التي كان من الممكن ان تتفتق عنها اذهانهم ، وخاصة ان هذه الديانات لم تكن تهدف في صميمها الى انقاذ الانسان ،بقدر ماكانت تهدف الى السيطرة عليه للاستفادة منه ، وذلك من قبل هيئات معينة ، احيانا كانت تتمثل في حاكم قبيلة، واحيانا اخرى في كاهن كبير..او في مجموعة من الكهان.

وعلى هذا الاساس قام ذلك الاستغلال لخوف الانسان !

وفي خلال هذه الفترة ، لم يكن الانسان قد تخلص بعد من جميع مقومات ومقدرات عوالمه الماضية . وهو وان كان قد تحرر من عصر الخوف الدائم ، الا انه لم يكن قد احس بالاطمئنان الكلي ، وان كان قد بدأ يبحث عنه بلهفة من يريد أن يتحقق من ان هذا الشعور بالامان يمكن ان يستمر كحالة دائمة .

ولهذا ، فنحن نستطيع ان نتبين هنا شدة قابلية الانسان في هذه الفترة للانتكاس والتقهقر .. وبينما يقف ، وهو في اشد الحاجة الى من يأخذ بيده ليساعده على السير ، يفاجأ بان هناك من يعمل لاسقاطه من جديد .. وان عليه بدل ان يسير ، ان يناضل بعنف كي لايسقط !

ولقد بدأ عمل بعض الكهان ، بأيهام الانسان بان تلك الاشباح المخيفة التي تملأ الظلام لايمكن ان تتلاشى ، واخذوا ينفخون فيها بشدة لتضخيمها ، ليخر الانسان من جديد مرتجفا يمرغ جبهته بالوحل ، ويتوسل اليها بعنف كي تتركه يعيش في سلام .

وكانت العملية التالية ، هي ظهور هؤلاء الكهان بمظهر المنقذ الذي يستطيع ان يسيطر على تلك الاشباح ، وعلى اشياء اخرى كثيرة وغامضة ، لايمكن ان تخطر على بال احد!

وكان على الانسان بعد ذلك ان يتوسل وان يمد يديه بخضوع لتلك الحفنة من الناس ، القادرة ، والتي لاتخاف.! وتكون النتيجة ، ان يتقدم أولئك الذين لايخافون لينقذوا هذا الانسان البائس ، وليمتصوا وجوده بعد ذلك ، مقابل ذلك الامن الزائف الذي يهبونه اياه !

وفي هذا الامن الزائف ، يشعر الانسان بانه ليس حرا ابدا في ان يعيش عالمه ، وبأنه مهدد في كل لحظة بأن يسلب منه ، كل سلام يعيش فيه ، وان يقذف فجأة في وجهه بكل تلك الاشباح المرعبة التي يخشاها !

وهكذا ، فان ذلك الاحساس بالخوف ـ والذي تحول الى شعور غريزي كامن ـ صار مهددا بالاثارة بصورة دائمة وعن سابق علم ومعرفة ! وكان ان انبثق بذلك عن هذا الشعور الكامن والمهدد معا ، حالة جديدة ، ان لم تكن تتسم بذلك القلق الحاد المكثف ، الا انها كانت تحمل في ذاتها امكانيات وقابليات ذلك كله ، يغلفها ستار رقيق سهل التمزق من احساس بالطمأنينة غير الثابتة ! هذه الحالة التي نعنيها ، يمكن ان نطلق عليها : الخوف من الاحساس بالخوف ! وضمن هذه الحالة القلقة كان يتم خضوع الانسان !

ومع ذلك ، فقد كان الانسان يسير ليتكشف له في سيره كل يوم اشياء وحقائق جديدة ، كانت تلح في دعوته الى اعادة النظر في كل ارثه السابق .

ولكن الى جانب ذلك ، كانت تلك الفئة التي قامت تشوه نضال الانسان ، تحس بان عليها ان تتحرك باستمرار لتتلاءم مع كل تلك الاشياء الجديدة التي كان الانسان يكتشفها ، اذا كانت ترغب في ان تظل قائمة !

وكان معنى ذلك ان تتطور تلك الاشباح التي تملأ الظلام، فتتحول تارة الى نمر شرس يطلب الاسترضاء باستمرار ، وتارة اخرى الى نار قوية ملتهبة ، وتارة ثالثة الى شمس عظيمة ذات قدرة هائلة ! وكل هذا ان كان يعني شيئا ،فانما هو صور اخرى مرعبة ، وتجدد مستمر لمخاوف الانسان .

ولكن ، مالبث ـ من خلال ذلك كله ـ ان انبثقت مرحلة جديدة من مراحل تطور الدين ، وهي مرحلة ظهور الرسالات .

وفي هذه المرحلة تميز الدين بهدف جديد ، هو انقاذ الانسان والعمل على اصلاحه ، وتجاوبا مع طبيعة هذا الهدف ، كان على المرحلة الجديدة ان تتضمن حركة مقاومة لكل المراحل الدينية السابقة التي كانت تقف عند حد استغلال الانسان .

وكان على الدين الجديد ـ تبعا لذلك ـ ان يهدم كل القيم السابقة التي لا تتلاءم مع هدفه الجديد ، ليبدأ ببناء قيم جديدة اخرى تستطيع ان تساهم في اعطاء حياة صحيحة لهذا الانسان .

ولكن كان هناك شيء هام تميزت به حركتا الهدم والبناء وهو ان عملية الهدم لم تتجاوز القيم الفوقية ، تلك التي تتناول الهدف كماهية ، وان عملية البناء لمجموعة القيم الجديدة ، قامت على نفس الاساس السابق .. الخوف ! فالانسان بعد ان كان يهدد كي يتنازل طائعا عن بقرته ، اصبح يهدد كي لايسرق ، او يكذب ، او يقتل انسانا اخر.

غير ان هذه المرحلة قد تخصصت بشيء جديد ، فالانسان من قبل عندما كان يطالب بالخضوع ، كان قبوله او رفضه يحمل في ذاته ، ومباشرة ، النتيجة .. فاما ان يرضخ وعندها يعيش في امان ، واما ان يرفض ، فعليه ان يواجه عندئذ اشباحه منفردا !

اما في تلك المرحلة الجديدة ، فقدطرأ على ذلك تطوركبير. فالاشباح والخيالات تلاشت وانحلت ، وبرزت الى مجال الادراك الانساني ، تلك الطاقة العظيمة التي تملك الكون بأجمعه ، وتشكل علة هذا العالم بكل مظاهره وأسراره ، وتلك العلاقة التي كانت تحدد موقف الانسان من تلك القوى المخيفة ، كان من البديهي ان يطرأ عليها تغير ما ، بعد ذلك التغير الايديولوجي الجذري الذي تناول الطرف الاخر في تلك العلاقة .

فالانسان في كل مرة يظل مطالبا بالخضوع ، ولكن مايترتب على انصياعه أو تمرده ، هو الذي انسحب ،مخلفا وراءه كل الصور القديمة ، ومتبلورا من خلال صور جديدة تتركز اعتبارا من ذلك الاساس القديم ، بعد تلاؤمه وتفاعله مع مختلف عناصر ومقومات تلك المرحلة الجديدة .

فذلك الشعور الحاد بالخوف ، الذي كان يتربص بكل بادرة تمرد او عصيان ، تراجع ليتحول الى نوع من العذاب المرعب في عالم اخر مجهول ، يتعرض فيه الانسان لانواع مضنية من العذاب .. « فمن غمس في قطران مغلي ، الى سلخ جلود .. الى احراق في نار شديدة الهول ! .. وكلما اصاب الانسان الموت ، أعيدت اليه الحياة من جديد ، لتعاد ممارسة ذلك العذاب عليه مرة اخرى» .. وتحت تأثير هذه الصور المرعبة ، يظل الانسان في كابوس دائم من الخوف ، يتلمس طريقه باستمرار ، خشية انيزل عن ذلك الخط الذي رسم له !

بذلك الامن المضطرب الذي كان الانسان يكافأ به ، تراجع ايضا الى ذلك العالم المجهول ، ليشكل بدوره حياة اخرى زالت منها كل عوامل الخوف والاثارة ، حيث يعطى الانسان وجودا مؤمنا عليه بصورة سابقة ، اي انه لايفنى ،ولايتعرض مطلقا لما يهدده .

وبعد ، هل يمكن ان تبرر تلك القيم ، بما تهدف اليه من انقاذ للانسان ، ذلك الاساس غير السليم الذي تقوم عليه ، والذي يحتقر الانسان كقيمة بالغائه لديه كل مسؤولية يمكن ان يشعر بها تجاه عملية انقاذه وتحسين وجوده ؟!

وكان هذا التساؤل بداية عهد جديد اخر .. عهد ارتفع فيه الخوف من مجرد شعور غريزي ، الى احساس واع يتسرب الى دقائق حياة الانسان المعقدة ، ليحيط بها وينفعل بمشاكلها .

والتفت الانسان ليجد نفسه في خضم معركة عليه ان « يوجد » فيها .. ان يناضل بعنف كل تلك القوى التي تتربص به ، مهددة اياه كوجود . وهكذا لم تعد معركة الانسان ، ان لايموت ويتفسخ عضويا فحسب ، بل ايضا ان لايتجمد كحياة متحركة تهدف الى استنفاد اخر ذرة من طاقتها ، واثرائها باستمرار ، بشكل يتحقق لها فيه عالمها الحار النابض !

وهكذا وجد الانسان نفسه حيال عصر طرحت فيه مشكلة وجوده الانساني بأعمق صورها واشد اوضاعها حساسية . ولهذا ، بدأ يحس بانه في حاجة الى ان يتحقق كانسان .. كوجود يؤكد ذاته تجاه عالم يحاول ان يفنيه ، وان يرصد كل قواه لسحقه ، وحد جذوره عن الانطلاق والعمل على تزييفه وقوقعته ،وبالتالي الى شل الانسان فيه. وبذلك ، فتح الانسان عينيه ، ليجد نفسه مغروسا بصورة جدية في هذا العالم ، وهو يصرخ بحدة : ان توجد ، او ان لاتوجد ، تلك هي المشكلة !

وهنا يبرز الوجه الاول للمشكلة : لقد فقد الانسان صداقته لهذا العالم بكل ظروفه واوضاعه ، التي تحاول دائما ان تقذفه نحو رمال محرقة غريبة ، وتحدق فيه بعداء بينما هو يجف حلقه ويفقد انسانيته ، وينحدر الى الهوة دون ان يكون باستطاعته ان يقاوم !

ولهذا يحس الانسان بان عليه ان يكافح بضراوة ، كي يتحرر من تلك الاوضاع والظروف ، وان يحطم نهائيا هذا الخوف الذي يتربص به ، وتلك الاسس الفاسدة ، والاجواء الرديئة التي ينمو فيها .

وهكذا نجد انفسنا امام انسان يريد الانفلات ، ولكنه الى جانب ذلك يؤمن بانه لايمكن ان يعيش في العراء .. ان عليه ان يوجد عالما يحتضنه ، والا فسوف لايزيده هذا الانفلات الا حدة شعور بالعدم ! لقد رفض ذلك العالم القائم ولكنه الى جانب ذلك حائر لايستطيع ان يحدد اين وكيف يجب ان يبني عالمه الجديد ؟!

وهنا تطل المشكلة بوجهها الثاني .. اننا امام انسان بلا موقف ، يحس الغربة والضياع في ارضه ، وهو اذ يناضل جاهدا كي يصرع عدمه ، يريد ان يحس الحياة حتى ولو كان ذلك في حركة دمائه التي تنزف !

ومن مشكلة الوجود هذه بوجهيها يأخذ العصر صفته المميزة : القلق !

وهذا القلق ، مهما يحمل للانسان من اضطراب ، الا انه استطاع ان يرتفع الى وعي ثوري مؤكد للذات تجاه كل العوامل التي تسعى الى امتصاصها واذابتها ، في مختلف المجالات التي يمتد عليها ، والتي أن تنوعت وتباينت اسسها وتراكيبها ، فانما يجمعها ذلك الامتداد القلقي الذي يستهدف في النهاية تحرير الانسان واعطائه التربة الملائمة التي يخصب فيها باستمرار !

جامعة دمشق ـ كلية الطب

عبد الله يونس